

الخطرة النفسية والشعور بالجهة

« بحث عامي »

قبل أن نتكلم في الحالات النفسية والخطرات الذهنية التي تقود الفكر — رغماً عنه — إلى نتيجة مخصوصة ، وتسوقه قسراً عنه في طريق ما ، تبعاً لموضوع التفكير أو لخاطر سباح ، يحسن بي هنا أن أعرض لبعض حالات عامة للنفس توطئة لذلك : إن النفس كالبحر المحيط أر النهر الجاري ، والأفكار السابحة التي نشعر بمرورها في داخلنا تشبه الأمواج على سطح الماء العميق . وقد مثلت لذلك في المقال السابق عن « الخطرة النفسية وموضوع الذهن » يرسم بياني فليرجع إليه .

إن أمواج الفكر هذه تختلف من حيث الحجم والسرعة والحركة والاضطراب والانتظام ، فتارة تكون بطيئة السير ، وتارة مندفعة متدفقة كالسيل ، وكل ذلك تبعاً للحالة الصحية في الشخص المفكر ، أو الحالة الذهنية السابقة لهذه الحالة . ويشبه ذلك الطير في تنقله والفرش في طيرانه ، إذ لا ضابط لطيرانه وحركته . على أن لكل منهما فترات سكون وهندوء يخلدان فيها إلى الراحة التامة وهنم الطيران . وكذا الأمر في حالات الوعي وسواج الخاطر ، فإن بها ما يشبه ذلك التثقل ، فحين نشعر بمرور الفكر في النفس ، واجتيازها للخاطر . وحركة الاجتياز والعبور هذه يسميها وليم جيمس « الأجزاء الانتقالية » لنهر الوعي والفكر . والحالات التي تقف أمام النفس ريثما تعبرها ويتمكن منها يسميها « الأجزاء الجوهرية » أو البارزة أو الثابتة لنهر الوعي أيضاً . ومما يساعد على فهم هاتين الحالتين ، اللغة وتركيبها . فإن كل جملة تنتهي بعد إقادة المعنى المستفاد منها . وقد اصطلح في اللغات الغربية بوضع نقطة ، علامة على نهاية الجملة . وقد تابعنا نحن وغيرنا من الأمم الشرقية في ذلك .

هذا أمر منطقي طبيعي . أما الاجزاء البارزة أو الثابتة من نهر الوعي فتشغلها عادة الصورة الحسية . وأما الاجزاء الانتقالية فتحل فيها الخطرات والافكار التي تمثل العلاقات والنسب بين هذه الصورة الحسية . على أنه من المستحيل إيقاف الفكر وفحص مكوناته وما تتألف منه الخطرة النفسية ، لأنه بمجرد ما نلتفت الى الحالة الذهنية المطلوب فحصها ، تكون قد انعدمت وحلت محلها حالة نفسية جديدة .

وقد نشأ عن تلك الاستحالة مذهبان فلسفيان كلاهما خطأ : أولاً — مذهب الفلاسفة الحسيين الذين ينكرون وجود العلاقات والنسب في الذهن ، ويقولون بعدم وجودها البتة ، لا ننالا نشعر مطلقاً في أنفسنا بوجود هذه الحالات المزعومة . وقد غالوا في ذلك وعلى رأسهم دافيد هيوم الانجليزي وانكروا ليس فقط وجودها داخل الذهن ، بل خارجه أيضاً . وثانياً : طبقة من الفلاسفة تسمى بالعقليين سلمت مع الاولين بعدم وجود حالات ذهنية تمثل العلاقات والنسب بين الاشياء خارج الذهن . ولكنهم لم يستطيعوا انكار العلاقات بين الاشياء خارجه . فقالوا ان العقل يدرك هذه العلاقات لا بحالة وعي نشعر بها في صميم أنفسنا ، بل بعمل عقلي خالص . ومن هنا أطلق عليهم اسم العقليين

على أن كلتا الطائفتين على خطأ . وقد ساعد على هذا الخطأ عجز اللغة الذي نوهنا عنه . فالحسيون أو التجريبيون لما لم يجدوا في اللغة غير الالفاظ المفردة الدالة على مفردات الاشياء ، ظنوا كذلك أن الحالات النفسية مفردة . وقد برهن على فساد هذه المزاعم جمع من الفلاسفة وعلماء النفس فقام أمثال دي تارسي ولارومينير وكارديلياك والدكتور توماس براون وسبنسر وجيهس وغيرهم وقالوا ان عقولنا تعي أشياء كثيرة وصور شتى في حالة نفسية واحدة وفي آن واحد . وأن هذا الادراك الجامع في الآن الواحد ، يجعلنا نشعر شعوراً متفاوت قوة وضعفاً بوجود فوارق ومشابهات بين الاشياء . وان تلك الفوارق والمشابهات الكائنة بين الاشياء هي بذاتها العلاقات التي نقول بوجودها ، والتي يقابلها في المخاطر حالات وعي على غرارها . وبما أن علاقات الشيء ونسبه غير متناهية الحصر فحالات الوعي المقابلة لها غير متناهية قياساً .

وقد قال أولئك الفلاسفة أن حالات العلاقات التي أنكر وجودها الحسيون ليست الوحيدة من نوعها ، بل يوجد ما يشبهها في حالات نفسية عديدة يدمجونها في سلك واحد ، ويطلقون عليها اسم «مشاعر الاتجاه» **Feelings of Tendency** : فمن ذلك شعورنا بحب أو كراهية بعض أشخاص بسبب حوادث مضت وعنى عليها الزمن ، فتنوسيت الحوادث ولكن أثر الحب ، أو النفور بقي في النفس يثيره مرأى أولئك الأشخاص أو ذكراهم . وكلاً أكددنا الذهن للوصول إلى أسباب ذلك ذهبنا جهودنا عبثاً . فالشعور والحالة النفسية موجودين ولكن السبب ، بل وذكراه ، معدومان بالمرّة

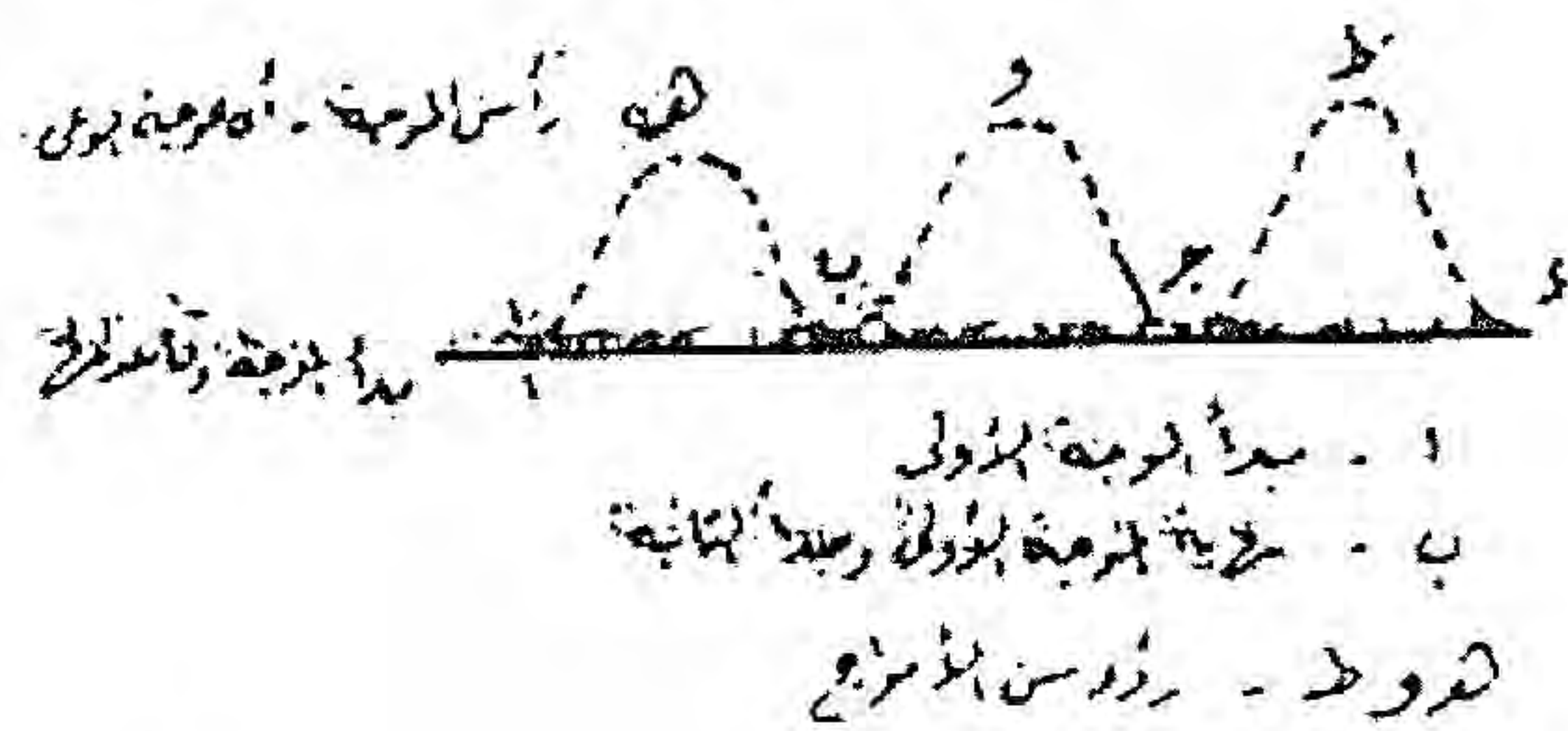
ومن ذلك أيضاً الشعور بالجهة أو توقع حصول أمر ما بعد سماع كلمات فيها صيغة الأمر مثل : اسمع . انتظر . صه . هس . وغيرها من الالفاظ التي تجعل السامع يتلبس بحالة نفسية خاصة كأنه يتوقع أمراً ، ولكنه يجهل ماهيته . ففي داخل النفس حالة وعى خاصة . على أنه لا يوجد في الخارج بعد أمر يتم به ما يتوقعه المرء . ومن ذلك أيضاً الحالة النفسية الخاصة التي تغرى المرء عند محاولة تذكر اسم نسيه . فالحالات النفسية والتفكير الخاص بالشخص لها روى خاص وسياق خاص وسرعة خاصة كما قلنا . فالاسم المنسى يحاول الظهور ، وهناك مثاله وقالبه وإن شئت قلت كما يقول جيمس — شيطانه — يشير لجهته ويلفت النظر نحوه محاولاً الظهور والخروج عارياً أمام الخاطر تعريفاً لنفسه المنسية . على أنه مع المحاولة لا ينفاج . فالحالة النفسية موجودة في الخاطر ولكن الصورة الحسية غائبة غير حاضرة أضف الى كل ذلك أن قسماً كبيراً من اللغات هو عبارة عن اشارات جهة ، وبعبارة أخرى أنها لا تشير في النفس أكثر من مشاعر المجاهية ، دون أن يصحبها صور حسية ما . وإذا ما حاولنا استيقافها لفحصها فأنها تتلاشى وتتبدد تبدد البخار ، بخلاف الصور الحسية فأننا نستوقفها ونسألها وتأمل فيها

أما الحركات الفكرية والنتائج المنطقية فأننا نشعر بها وهي تجتاز الذهن طائراً أبداً . فشعورنا بها شعور أيضاً بالجهة . لأننا نشعر بأنها مندفعة مسوقة إلى جهة أو نتيجة ما .

ومن الشعور بالجهة أيضاً الحالة النفسية الخاصة عندما نهم بقول كذا وكذا . وقد

فسر بعض العلماء ذلك بقانون علم النفس المعروف بقانون « تداعي الافكار » (١) وقالوا إن الفكر يدعو الفكر فيحصل في النهاية إلى نتيجة يكون قد ألف واعتاد ما يوصل إليها من حالات سابقة . على أن جيمس يعترض على ذلك ويقول انتا قبل أن نتكلم لا نعلم في الغالب ماذا سنقول ولا إلى أية نتيجة ستوصلنا أفكارنا . فنعن نشعر بالجهة فقط ولكننا نجعل كل الجهل النتائج التي يدفعنا إليها تفكيرنا . وأقوى الأدلة على تأييد ذلك هو تفكير النوابغ والعظماء . فان التأليف الفني عند رجال الموسيقى والكتاب والشعراء مثلاً يأتي إلهامه في لحظة واحدة . وشعورهم في تلك اللحظات هو شعور بالجهة فقط .

أضف إلى كل ما سبق حالتين أخريتين : الأولى الشعور بالوصول إلى نتيجة فكرية . فان الفكر يشعر بأنه مسوق إليها قسراً . وإذا ما وصل إليها يشعر أنه مسوق إلى نتيجة أخرى جديدة . وهكذا على التوالي . ولتمثل لذلك بهذا الرسم البياني :



والحالة الثانية هي الخطأ في هجاء الكلمات . فان الفكر ينحرف عن الجهة المقصودة إلى جهة أخرى . وقد أرجع الدكتور كاربنتر ذلك إلى تغير محلي في كمية توارد الدم والسيال العصبي إلى المخ . ونجهة التفكير المقصودة ويحرفه عن جادة الصواب ، فيحصل الخطأ في تهجئة اللفظة ، وتوضع الكلمة في غير محلها . ولنسب الظل الذي ترميه الحالات النفسية السابقة على حالة الوعي الحالية بما يكاد يشبه الامتزاج ، بالهامش أو الهدب أو بالانتشار . وبذلك يصير الهدب جزءاً من موضوع الفكر . وتظهر المقومات الثابتة للشيء أمام الفكر في حالة وآثار من العلاقات والنسب التي ترمي عليه ظلالاً رقيقة كما ترمي السحب الخفيفة الصيفية ظلها الخفيف على قرص الشمس ، أو كاهالة للقمر

(١) تداعي الافكار : اصطلاح يوافقه في مصر هنا (تسلسل الافكار) وفي سوريا (اشتراك الافكار) ، وهو اصطلاح الاراك على لفظة association لأن الفكر يدعو الفكر وعندني أنه هنا أدل على المعنى . وفي الفارسية يضعون له كلمة مترجم حرفياً (اجز الافكار)

من هنا يظهر لنا الفرق العظيم بين المعرفة بالشيء والمعرفة عن الشيء .
 معرفتنا بالشيء قاهرة على الأثر المجرد الذي يتركه هو وحده في النفس بصرف
 النظر عن العلاقات والارتباطات والنسب . ومعرفتنا عن الشيء هو معرفتنا
 بملائقته ونسبه دونه . ومعرفتنا بالعلائق والنسب هذه لشعر بها في الظليل والهمالة
 الموجودة حول الموضوع شعوراً بللوجو دفقة ، دون استعواز على عقر ذات صورها
 على أن لهذه العلاقات والنسب حول موضوع الذهن تألف وتجانس وسعياق .
 منطقي معين ينظم كل جملة منها في سلك ونظام خاص . وبعبارة أخرى يجب أن
 تكون كل علاقة وكل نسبة جزءاً من مجموعة خاصة نواتها ومركزها موضوع
 الوعي أو الفكر نفسه . وذلك لأن النتيجة والسياق المنطقي هما أهم أمر في التفكير
 ومن أنواع التألف المعروفة في علم النفس تركيب الجمل في اللغات فاني . لكل
 لغة تألف مخصوص بين الألفاظ بعضها ببعض لا تشذ عنه . فلا يقدم المفعول
 على الفاعل ولا الخبر على المبتدأ في العربية مثلاً . بل إن إدخال كلمة أجنبية في اللغة
 التي نكتب أو نتكلم بها كثيراً ما تأباه . طباعنا لمخالفتهم قانون التألف اللغوي الذي
 درجنا عليه . على أن من المبادئ أن النطق بكلمة ما يتبعه في الغالب ، وذلك نظراً
 للاعتماد السابق ، سلسلة ألفاظ أخرى قد لا تكون لها رابطة بالموضوع الذي
 نحن بصدده ، يضطروننا الاستعمال اللغوي — دون شعور منا وقسراً عنا — إلى
 استعمالها واعتبارها جزءاً مهماً من موضوع التفكير . ولذا قل الاستاذ جيمس
 إن الحد الفاصل بين اللغو والمعنى المستقيم من أشق الأمور . وعلمنا هذا في
 مصر الأمثلة متعددة . فكم من عبارات جوفاء ومبهمة كل الأبهام تفشها الجرائد
 لأناس لا شأنهم . يعتقدون بكل إخلاص أنها ذات معنى مفيد ، بل أرى بعضاً من
 الأدباء ومن بلغوا الدروة في فن الكتابة لم يعلم من ذلك السقوط .

وقد يبلغ عدم التمييز بين اللغو والصحيح جداً يتحذر على القارئ معه أن
 يصل إلى وحدة سياق الكلام والوصول إلى نتيجة ما . وقد أورد صاحب كتاب
 عيسى بن هشام شيئاً من هذا النسب إلى أحد المشايخ « ص ٢١٥ — ٢١٩ طبعة ثانية » .
 ومن برع في ذلك ، وإن أهمل زبانه التمييز بين طوائف جوهرية ، خصوصاً في
 كتابه « أين الألسن » ومن ذلك آخر كتاب للفضيلة الاستاذ الشيخ بحيت عن
 « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » فيه كثير من تلك اللغو البسيكولوجي .

ولا شك في أن هؤلاء الأفاضل يرون في كتاباتهم ما لا يرى غيرهم فيها أضف إلى ما سبق ذكره من عدم التمييز بين لغو الكلام وصحيحة ، ان أية مجموعة من الالفاظ لو روعى فيها التناسق والتآلف اللغوى لألفت جملاً تؤدي معنى مستقيماً وان يكن بعيداً كل البعد عن مجازاة الواقع والحقيقة . بل ان أكثر الالفاظ بعداً عن الحقيقة في الرؤى والاحلام يؤدي ذلك ، بشرط ألا يشك المرء في أنها مرتبطة بعضها ببعض . بل ان كل لغات العالم حتى الفطرية منها ، تحتوى على مجموعات من الالفاظ بمجرد النطق بلفظ منها يتبعها حتماً ألفاظ أخرى بعينها لا تتغير أبداً . فمن ذلك في العربية مثلاً : اللهم ان . مع انه . ولا سيما . ولا بد من أن . الخ . فالمعاني إذاً على قسمين : معان واقفة يقتصر الذهن فيها على عدم التنقل والسكون في الحالة الوعائية . ومعان متحركة يدعو فيها المعنى معان أخرى . ومن هذا التقسيم يمكننا أن نفهم بعض أخطاء الفلاسفة السابقين . فمن ذلك قول هيجل الفيلسوف الألماني المأثور : « إن الوجود المحض يستوى والعدم المحض سواء بسواء » فأننا نرى هنا أنه أخذ المعنى على وجهه الساكن القار الموضوع أزاء اللفظ ، دون الالتفات إلى علاقته ونسبه وان شئت فقل حالته وظليله .

هذا وقد حدث كثرة الالفاظ التي لا معنى لها في اللغات ببعض إلى القول بأن التفكير ممكن بدون لغة وان الفكر ليس في حاجة الى صور رمزية من لغة وألفاظ وإشارات وغير ذلك . أما الاستاذ مكس ملار الألماني اللغوى الشهير فقد أنكر ذلك وقال ان الفكر واللغة متلازمان لا ينفصلان عن بعضهما البعض . على أنه يدرج تحت اللغة جميع الالفاظ والرموز التي ليس لها مقابل في اللغة . ويستثنى من ذلك مجموعة الالفاظ التي تدل على العلائق والنسب . أما الذين يعارضون الاستاذ ملار فيوردون تأييداً لرأيهم ذكر أشخاص كانوا طرثاً عمياً بكما ، واستطاعوا مع ذلك التفكير والكتابة والتعلم مما يدل عندهم على امكان التفكير بدون لغة .

وقد ذهب الاستاذ ليويس في كتابه مسائل الحياة والعقل مذهباً آخر متابعاً في ذلك القس الفيلسوف بركلي الانكليزي في أن الفكر هو رمز حسابي أشبه برموز علم الجبر . وقد شرح ذلك شرحاً بديعاً فقال : إن المهم في علم الجبر هو أن كل عملية جبرية تجري بين نسب رياضية مخصوصة . وكذلك خاصية الفكر .

وكما ان علم الجبر لا يمكن أن يوجد الا بوجود قيم حسابية لكل علامة جبرية ،
فكذلك الامر في الفكر ، فانه لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود مشاعر . والعمليات
الجبرية تظل صوراً جوفاء حتى يتحدد لكل منها قيمة حسابية خاصة . والامر في
الالفاظ والكلمات لا يخرج عن حكم هذا فان كلامها عبارة عن أصوات معدومة
المعنى ، والافكار صور جوفاء ، حتى يدل كل منها على صور واحساسات لها قيم
خاصة . على أنه من المعلوم ومن المهم جداً أن الرياضيين يجرون عمليات رياضية
طويلة بواسطة هذه الرموز الجوفاء دون أن يتوقعوا حتى يعطوا كل رمز
وكل حرف جبري قيمته الحسابية . بل انهم يعالجون المسائل ويكدون أنفسهم
في حلها حتى يصلوا إلى النتيجة . وتلك قاعدة عامة لا يشذ عنها عامة الناس ، عالمهم
وجاهلهم . فهم يجرون عمليات تفكيرية طويلة دون أن يعنوا بترجمة الالفاظ
والعبارات إلى صور محسوسة . فكلمة أسد مثلاً لا تذكرنا بخبرة شخصية مباشرة
مع ذلك الحيوان . وأكثر الناس لم يختبروه عن كشب ولم يعرفوه . ولكن
الكلمة رمزية تثير فينا عوامل الرهبة والخوف والوحشية . فالافكار إذاً رموز
تحتاج إلى عملية ثانوية لترجم فيها تلك الافكار إلى ما تشير اليه وترمز له من
الصور والاختبارات الشخصية التي تستبدل منها . على أن هذه العملية الثانوية
قلما تحصل وقاما يلتفت إليها الذهن . ولا يلجأ اليها إلا في النادر . فالمفكرون
إذاً يعطون قيمة نهائية لأفكارهم كأنهم يجرون عملية جبرية فيشبهون بذلك
الرياضيين الذين يجرون العمليات الطويلة ليعطوا في النهاية قيمة حسابية لكل
مجهول في المعادلات الجبرية .

ع . حسين تقي اصفهاني